ISSN: 2437-041X
DOI :
مجلة أنثروبولوجيا
مجلد: 04 عدد: 08 السنة 2018

مدينة عدن في كتاب احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، اثنوجرافية المكان

Aden city on the best distinctions in the knowledge zones books, ethnographical place

أمل صالح سعد راجح، جامعة عدن، الجمهورية اليمنية

aaa3034@hotmail.com

الملخص

لمدينة عدن حضور في كتابات الرحالة العرب، أن كان وصفا أو انبهارا أو تدقيقا ودراسة، فلم تغب عدن عن كثير من الرحالة العرب ومن ضمنهم المقدسي، ففي كتابه احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم،نجد دراسة اثنوجرافية وافية عن المدينة تشمل : موقعها، مناخها، مساجدها، اخلاق أهلها وذكر اسوارها وأبوابها، دراسة تحاذي بالمفهوم الحديث الدراسات الاثنوجرافية الحديثة التي تهدف إلى وصف عادات وثقافات المجتمعات، وهذا ما انجزه المقدسي من خلال وصفه للمدينة .

الكلمات المفتاحية : مدينة عدن ، الرحلة ، المقدسي ، الاثنوجرافيا.

Abstract

Aden city has a strong attendance in the writings of Arab's travellers, whether it was description , dazzliay, examination or study. Aden was not lost from many Arab's travellers writings such as AL-MAKDASY in his book (Ahsen Atakaseem Fi Marefaht Al Akhaleem) which composed of ethnography study of Aden city including it's region , climate, mosque, the ethics of it's people and mention it's doors and walls . study which looks like to the modern concept ethnography studies aimed at describing the customs and culture of societies. That is what AL-MAKDASY has proved through his description of Aden.

المقدمة

بعد أن استقر الإسلام في رقاع امبراطوريته وتوقفت القوافل العسكرية عند الحدود التي انتهت اليها الفتوح، نشأت مراكز للعلم في الأجزاء العربية وغير العربية ورحل الناس في طلب العلم من مكان إلى آخر... ونهض الى جانب اصحاب التجارات وطالبي العلم وقاصدي بيت الله الحرام فريق آخر من الناس يطلبون الرحلة من أجل الاستزادة في معرفة حقائق الامصار والأقطار والبلدان ومن هؤلاء ظهر الرحالة المحترفون، الذين كانوا يرحلون من أجل الرحلة، قبل أي شي آخر [1] والمطلع على تراجم علماء المسلمين العرب يقف على العديد من الأسماء الإسلامية التي بلغ اصحابها القمة في شق الاقطار والتجوال في الفيافي والقفار بغية طلب العلم ونشره ومجالسة اعلامه من ناحية ودراسة الاقاليم وعادات الأمم وقيمها وثقافاتها من ناحية أخرى... فمن ضمن اهداف الرحلة في الإسلام دراسة احوال الأمم الحاضرة لقياس الحاضر بالغائب واللاحق بالسابق وبهذا يشمل هدف الرحلة الدراستين الاثنوجرافية والتاريخية أي الجمع بين الدراسات الوصفية والتاريخية [2] وتعد مدينة عدن محطة من المحطات التي حط فيها الرحالة العرب رحالهم وتفننوا في وصفها والحديث عن مساكنها وقصورها وتحصيناتها ووصف موقعها وأهميتها التاريخية والتجارية إذ نجد الرحالة المقدسي من ضمن الرحالة الذين اعطوا وصفاً رائعاً وكاملا لمدينة عدن والإشارة إلى مكانتها التاريخية والحضارية. وتتقارب رحلة المقدسي، ووصفه لعدن وبقية الاقاليم التي زارها والدراسات الاثنوجرافية الحديثة والتي تنزع إلى الوصف والتعريف بالقيم والعادات الحضارية للشعوب والثقافات المختلفة وهو الذي سنتطرق إليه في هذه الدراسة.

أهمية البحث

تأتي أهمية البحث في كونه يسلط الضوء على أحد الرحالة العرب وهو الرحالة المقدسي الذي عني بوصف ودراسة الاقاليم المختلفة للعالم الإسلامي وغيره من الأقاليم، إذ تعد هذه الرحلات والذي دونها المقدسي وغيره من الرحالة بمثابة دراسات علمية قيمة تمدنا بصورة حية عن المدن والأقاليم المختلفة وعن الحياة الاجتماعية في هذه الاقاليم ومقدار ما تتمتع به هذه المدن من أهمية عالمية واسعة منذ فترات زمنية كبيرة ومنها مدينة عدن . لقد

شكل الرحالة العرب برحلاتهم هذه نواة الدراسات الانثروبولوجية والاثنوجرافية الحديثة قبل علماء الانثروبولوجيا المحدثين، والذي ينسب إليهم الفضل في العصر الحديث، ولكن في الأصل هو احقية الرحالة العرب في امتلاك ناصية هذا العلم وتحقيقه على اسس علمية صحيحة، إذ يرجع إليهم الفضل في اظهاره وإرساء أركانه.

ويعد الرحالة المقدسي من ضمن الرحالة السباقين في تدوين الدراسات الاثنوجرافية عن اقاليم العالم ووصف احوالها وموقعها، وتعد بحق مرجعا مهما لكافة الدراسات الاثنوجرافية والانثروبولوجية الحديثة،

ومن ضمن الاقاليم التي حضيت بوصف المقدسي مدينة عدن اذ تأتي أهمية البحث في كونه يسلط الضوء على دور مدينة عدن وأهميتها ويشكل في ذات الوقت مرجعا مهما للدارسين للتعريف بدور مدينة عدن التاريخي والتجاري المهم كونها مدينة تتمتع بتاريخ عريق لا زال حاضراً إلى الآن.

أهداف البحث

1- اعطاء عرضاً وافياً لما دونه المقدسي في وصف مدينة عدن وذلك في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، وذلك من حيث : الوصف المكاني، وأهمية مدينة عدن ووصف مساجدها، ودورها، وطباع أهلها، إلى وصف اسوارها وأبوابها.

2- الكشف عن التشابه بين وصف المقدسي للمدينة والدراسات الاثنوجرافية الحديثة التي تصف المجتمعات التي تقوم بدراستها، وذلك من حيث التركيز على وصف الثقافات والعادات للمجتمعات الانسانية وما ينتجونه سواء كان مادة أو فكرة، فالوصف المكاني للمدينة وما يتبعه من وصف للحياة الاجتماعية يعد من الاساليب والطرق الحديثة التي تتبعه الدراسات الاثنوجرافية والانثروبولوجية عامة .

3- التعرف على الطريقة التي اعتمدها المقدسي في دراسته للمدينة وهي طريقة الملاحظة بالمشاركة والتي تعتبر من الطرق الحديثة في الدراسات الانثروبولوجية . فالمقدسي كان حاضراً في المدينة ونقل عن كثب صورة حية عن مدينة عدن وتجارتها وأهلها مما يدل على مشاركته اياهم ومعرفة عاداتهم وتقاليدهم.

منهجية البحث

يعتمد البحث على المنهج التاريخي، إذ تم الاستفادة من المادة التاريخية عن مدينة عدن في كتاب الرحالة المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) كما عني بربط هذه المادة التاريخية بالدراسات الاثنوجرافية الحديثة.

مفاهيم البحث

الرحلة : جنس تتداخل فيه كثير من المجالات المعرفية والتعبيرية: الجغرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والدين والسياسة والأدب. لهذا تحظى نصوص الرحلات باهتمام عدد كبير من الدارسين والباحثين من تخصصات مختلفة [3]

الرحالة المقدسي : هو (ابو عبدالله محمد بن ابي بكر، ت 387هـ) في كتابه "احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" يعتبر المقدسي من كبار الجغرافيين العرب في القرن الرابع للهجرة. فأن كتابه المذكور هو خلاصة ما شاهده وعاينه في رحلاته وأسفاره الطويلة في ديار الإسلام، وخدماته للملوك ومجالسته للقضاء، وتحصيله العلم على يد الفقهاء والعلماء. وقد اعتمد فيه أيضا على الجغرافيين العرب السابقين عليه امثال:ابن خردابه والجيهاني والبلخي والهمداني والجاحظ وابن رسته [4]

الاثنوجرافيا (Ethnography) تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية معينة محددة [5] . فالاثنوجرافيون يقدمون صوراً تفصيلية لما في ثقافة ما أو ثقافة فرعية ما أو جماعة ما، من ممارسات وعادات الحياة اليومية. وكثيرا ما يقومون – اثناء ذلك – بجمع المنتجات والمصنوعات اليدوية وغيرها من المواد الثقافية. وهم يسجلون ويحللون تلك التشكيلة المتنوعة من الابنية الاجتماعية داخل مجتمعها باذلين اهتمام بالحياة الدينية، والعائلية، والسياسية، والاقتصادية. وتعد هذه الطريقة" صريحة وشخصية" كما انها تتم عادة في مجتمعاتها الطبيعية، أي في تلك الاماكن التي يباشر فيها الافراد حياتهم اليومية وليس في مكان سابق الاعداد، يقوم الباحث بترتيبه أو اعداده في موقع محدد. وتتطلب الملاحظة بالمشاركة، والتي هي اداة بحث اساسية لعلم الاثنوجرافيا ولتطبيقه، تتطلب من الباحث أن يعيش في المجتمع الذي يقوم بدراسته، أو يقوم بزيارات مكثفة وشاملة له، حيث يقوم بملاحظة الانشطة التي يباشرها هؤلاء الأفراد الذين يدرس احوالهم كما يقوم بالمشاركة فيها [6]

المنهج الاثنوجرافي لدى المقدسي

في معرض حديث المقدسي عن طريقة جمعه لمادته العلمية وعن ما شاهده في البلدان التي زارها، يضع اساسيات المنهج الاثنوجرافي الحديث، فلم تكن مشاهدات وتدوينات عابرة، ولكنها خلاصة ما قام به من جولات في هذه الاقاليم ولقاءه العلماء والقراء، فهو يوضح طبيعة المواد الاثنوجرافية التي تضمنها كتابه احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم بقوله " وما تم لي جمعه إلا بعد جولاني في البلدان ، ودخولي اقاليم الإسلام ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاء ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكرين مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد، والتفطن في هذه الاسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الاقاليم بالفراسخ حتى اتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حررتها، وتنقلي الى الاجناد حتى عرفتها، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبري في الكور حتى فصلتها، وبحثي عن الاخرجة حتى احصيتها" [7]

وبهذا يعرف المقدسي القارئ بمنهجه الاثنوجرافي تعريفا جامعا مانعا، فهو لا يجمع مادة كتابه عن طريق النقل أو القراءة او الحكاية أو الرواية أو السماع كما كان يفعل النظريون من انثروبولوجي القرن التاسع عشر، وإنما اعتمد على الدراسة الحقلية الجادة، فهو يخالط العلماء ويجالس الفقهاء ويختلف إلى الأدباء يناقشهم ويتعلم منهم ويأخذ عنهم. وفي نفس الوقت يشتغل بالتجارة ويمسح الأرض ويتعلم لغة القوم ويفطن إلى الأجناس فيعرفها، وفي اطار هذا المنهج العربي الأصيل ينصح الانثروبولوجيون المعاصرون الباحث الميداني بالا يكون مجرد مسجل لما يسمع أو ملاحظ لما يرى. وإنما عليه أن يأخذ دورا ما - ما امكنه ذلك في البناء الاجتماعي الذي يدرسه. فيشارك افراده طقوسهم وشعائرهم وطعامهم وخيامهم.وأن يتعلم لغتهم ليفهم بعمق وعن كثب افكارهم من خلال تعبيرهم عن تلك الافكار. ثم يقول المقدسي في مقدمة كتابه" اعلم اني اسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية.وتحريت جهدي الصواب، واستعنت بفهم اولي الالباب. وسألت الله عن أسمه أن يجنبني الخطأ والزلل، ويبلغني الرجاء والأمل، فأعلى قواعده وارصف بنيانه وما شاهدته وعقلته، وعرفته وعلقته، وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان" [8] . "ويمتاز المقدسي بالدقة في كتابه، والعناية بتسجيل الأخبار الغريبة، وقد سجل منهجة في مقدمة كتابه، فقال "فرأيت أن اقصد كلما قد اغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه إلا على الاخلال وهو ذكر الاقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار ووصف امصارها المشهورة ومدنها

المذكورة، ومنازلها المسكوكة وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم ، وما يحمل من عندهم واليهم وذكر مواضع الاخطار في المفازات، وعدد المنازل في المسافات". [9] وبهذا يتحرى العالم المسلم الدقة المنهجية فيؤكد أنه تحرى الصواب في كتابة ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأنه وصل إلى ما وصل إليه عن طريق المشاهدة والمعاينة، ورغم هذا يقرر بمنطق العالم الحصيف المتواضع أنه قد يكون وقع في خطأ غير مقصود لزم التنويه به والإشارة إليه فيقول" ثم لا أبرئ نفسي من الزلل، ولا كتابي من الخلل، ولا اسلمه من الزيادة والنقصان ولا افلته من الطعن على كل حال" [10]

وصف المقدسي لمدينة عدن .. اثنوجرافية المكان

وهنا سنقف قليلا لنرى عدن فيما كتبه المقدسي إذ قال **(وعدن بلد جليل، عامر آهل حصين، خفيف، دهليز الصين، وفرضة اليمن، وخزانة المغرب، ومعدن التجارات كثير القصور، مبارك على من دخله مثير لمن سكنه مساجده حسان ومعايش واسعة وأخلاق طاهرة ونعم ظاهرة وبارك النبي (صلى الله عليه وسلم) في سوق منى وعدن وهو في شبه صيرة الغنم قد احاط به جبل بما يدور إلى البحر ودار خلف الجبل لسان من البحر فلا يدخل إليه إلا إن يخاض ذلك اللسان فيصل إلى الجبل وقد شق فيه طريق في الصخر عجيب وجعل عليه باب حديد ومدوا من نحو البحر حائطا من الجبل إلى الجبل فيه خمسة ابواب والجامع ناه عن الاسواق ولهم آبار مالحة وحياض عده ويقال إنها كانت في القديم حبس شداد بن عاد إلا إنها يابسة عابسة لا زرع ولا ضرع ولا شجر ولا ثمر ولا ماء ولا كلا كثيرة الحريق والوكف جامع شعث وهرج وحش وحمامات رديه يحمل إليهم الماء من مرحلة)** [11] ويمكن لنا من خلال هذا الوصف (الاثنوجرافي) لمدينة عدن أن نركز على نواحي عده منها:

الوصف العام لمدينة عدن

يبدأ المقدسي وصفه لمدينة عدن بأنها بلد جليل أي رفيع المقام، له مكانة مرموقة وعظيمة بين مدن العالم الإسلامي ومدن العالم ككل، هذه الأهمية نابعة من كون هذا البلد عامر أي معمور بالسكان يأتيه الناس من كافة انحاء العالم، الهنود والأفارقة والفرس

وغيرهم. ويتابع المقدسي وصفه للمدينة بقوله أنه بلد حصين أي أنه محكم ومنيع ضد غزوات المغيرين والطامعين في غزو المدينة والاستيلاء عليها.

موقع المدينة على خطوط التجارة العالمية

ينتقل المقدسي إلى وصفاً آخر لا يقل ميزة عن الوصف السابق، وذلك بقوله أن عدن تعد دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات، يبين المقدسي بهذا الوصف ما تحتله المدينة من مكانة عظيمة على خطوط التجارة العالمية "فقد تمتعت بموقع استراتيجي هام كان له الفضل في تميزها وشهرتها دون مدن أخرى في اليمن، فكانت محطة للتجار، والوسيط التجاري للبضائع القادمة من مصر، والهند،والصين،وافريقيا،كما سكن بها تجار من كل حدب وصوب، فكانت متاع السند والهند، والصين، والزنج، والحبشة، وفارس، والبصرة، وجده، والقلزم، ويعد سوقها من اشهر الاسواق، فكانت فرضة كل اليمن، وخزانة مال ملوكها [12] اضافة إلى إنها مدخل الصين لتمتعها بموقع تجاري هام وموقعها الفريد لتصريف لبضائع ذات الانواع المختلفة والمتعددة .

وصف أهل عدن وقصورها ومساجدها

يتابع رحالنا المقدسي وصفه لمدينة عدن ولكن هذا الوصف يبدأ من داخل المدينة عكس الوصف السابق والذي تعرض فيه لموقها ودورها. إذ يبدأ في وصف المدينة من حيث مبانيها وصفات أهلها إذ يشير إلى إن عدن بلد كثير القصور وقد جاء في كتاب تاريخ ثغر عدن في فصل الدور المشهورة في عدن أن هناك دار السعادة بناها سيف الإسلام طغتكين بن ايوب مقابل الفرضة أي من جهة حقات، كذا ذكره المستبصر في تأريخه ... وبناؤها عجيب مثلثة الشكل، يقال : أنه لما فرغ الباني من بنائها خاف السلطان أن يبني لغيره مثلها فأمر بقطع يده، فقال الباني: أن ذهبت يدي فأنا اشير لهم بصفه البناء فأمر السلطان بسمل عينيه... ودار الطويلة قال المستبصر في "تأريخة" دار بناها ابن الخائن على محاذاة الفرضة، أي: من جهة المغرب، فاصل بينها وبين الفرضة فضاء، وعلى بابها دكتان مسقوفتان، يجلس عليهما كتاب الفرضة، وكانت متجراً للملوك فيما تقدم وصار الآن المتجر دار صلاح الآتي ذكره أن شاء الله ... دار المنظر: قال المستبصر: بناها الملك المعز إسماعيل بن طغتكين على جبل حقات انتهى.وكان المعز جدد عمارتها، وإلا فهي قديمة كانت سلاطين بني زريع يسكنون بها كما ذكره الجندي وغيره، وذكرها الأديب العيدي في اشعاره، وهو متقدم على المعز والله سبحانه اعلم. دار صلاح : هو صلاح بن علي الطائي كان تاجراً بعدن فلما حصل الجور في ايام الناصر

الغساني، هرب التجار من عدن إلى جده، وإلى الهند وإلى منيبار، فخرج صلاح بن علي المذكور إلى منيبار، فاستصفت الدولة املاكه، ولما تولى بنو طاهر، وتعلقوا بالتجارة، جعلوها متجراً وزيد فيها في أيام الشيخ علي بن طاهر زيادة طويلة مشتملة على مخازن كبار من جهة حقات، الدار المذكورة، ثم زيد فيها أيضا في أيام الشيخ صلاح الدين عامر بن عبد الوهاب زيادة أخرى من جهة شرقي الدار. دار البندر: لم يكن بالبندر دار تعرف في قديم الزمان، وإنما كان من فوق البندر فضاء. يجلس الناس عليه عند سفر المراكب ومجيئها،يتفرجون على دخولها البندر وخروجها منه، فأتفق ان الشيخ عبد الوهاب بن داود رحمه الله طلع إلى البندر في آخر الموسم ينظر صراية المراكب، فرأى تلك السرحة والفضاء، فأمر أن يبني بها دار للتنزه والتفرج فبنيت بها دار ذات طبقتين .[13]

أما من حيث المساجد فيصفها بأنها حسان أي كثيرة الجمال والروعة، ويصف الجامع في موضع آخر بأنه **(ناه عن الاسواق)** أي بعيد عنها ليحسن فيها الصلاة وذكر الله. كما تتعدد في المدينة المعايش الواسعة نتيجة لتعدد الاعمال فيها، فتعد عدن بلد مبارك لما حباه الله بالبركة والرزق فهو مبارك على من يدخله، إذ يبارك الله في رزقه وماله، وهو في نفس الوقت مثير أي يعد مثار إعجاب من يسكن في هذا البلد الجميل. ويتطرق المقدسي عند وصف مدينة عدن إلى أخلاق أهلها وذلك بقوله **(وأخلاق طاهرة ونعم ظاهرة)** مما يدل على الاتصال بأهلها عن قرب ومعرفة اخلاقهم وصفاتهم، فيصف اخلاقهم بأنها طاهرة أي نقية وعفيفة وأن النعم تبدو ظاهرة عليهم نتيجة لتعدد معايش المدينة وأرزاقها. ويؤكد ذلك بقوله **(وبارك النبي صلى الله عليه وسلم في سوق منى وعدن)** فسوق عدن من أشهر الأسواق ويؤمه كثيرا من الناس من مختلف انحاء العالم وهو اضافة إلى ذلك حضى ببركة النبي عليه الصلاة والسلام.

وصف ابواب و اسوار مدينة عدن

وهو في شبه صيرة الغنم قد احاط به جبل بما يدور إلى البحر ودار خلف الجبل لسان من البحر فلا يدخل إليه إلا إن يخاض ذلك اللسان فيصل إلى الجبل وقد شق فيه طريق في الصخر عجيب وجعل عليه باب حديد ومدوا من نحو البحر حائطا من الجبل إلى الجبل فيه خمسة ابواب. يتحدث المقدسي في هذه الفقرة في وصف مدينة عدن وخاصة في وصف سوقها بأنه يحيط به الجبل الذي بدوره يحيط به لسان من البحر فمن اراد أن يصل إلى الجبل عليه أن يخوض هذا اللسان البحري، ولعظمة سكان مدينة عدن فقد شق فيه طريق في الصخر كان مثار اعجاب المقدسي إذ يقول (وجعلوا عليه باب حديد) (ويسمى باب البر

ويعد البوابة الرئيسة لمدينة عدن من البر... فلم يكن من دخول عدن قبل انشاء هذه البوابة إلا من الجانب البحري، أما بالنسبة لمن اراد الدخول إليها برا فكان عليه أن يصعد الجبال. وكان هذا هو الحال حتى تم شق الباب في هذا الموقع من الجبل ونستدل على ذلك بما ذكره الهمداني في سياق حديثة عن عدن بالقول " ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق، فقطع في الجبل باب بزبر، وصار لها طريق إلى البر ودربا" إذا شق في الجبل مدخلا للمدينة، وجعل له بابا من الحديد، ويذكره الهمداني ضمن عجائب اليمن التي ليس في بلد مثلها، ووصفه بالقول:" هو شصر مقطوع في جبل كان محيطا بموضع عدن من الساحل، فلم يكن لها طريق إلى البر إلا للرجل لمن ركب ظهر الجبل، فقطع في الجبل بابا بلغ عرض الجبل حتى سلكته الدواب والجمال والمحامل والمحفات وهذا ما يؤكده المقدسي:"وقد شق في هذا الجبل طريقا عجيبا وجعل عليه بابا حديدا) [14]

ويتابع المقدسي في وصف اسوار مدينة عدن بقوله : **ومدوا من نحو البحر حائطا من الجبل إلى الجبل فيه خمسة ابواب**، إذ تؤكد بعض المصادر(إن المقدسي هو أول من ذكر بناء سور بحري للمدينة الذي قام بزيارة عدن في عهد الدولة الزيادية في اليمن (204-412هـ/819-1021م) يمتد من الجبل إلى الجبل ووصفه بأن له خمسة أبواب وربما كان هذا السور يعود إلى فترة اقدم بكثير من عهد المقدسي، لكن لم تتوفر لنا أية كتابات تؤكد وجود سور لعدن قبل هذه الفترة ... وقوله مدوا نحو البحر حائطا من الجبل إلى الجبل – أي من جبل الخضراء إلى جبل حقات) [15] وتعددت أسماء الأبواب تبعا للروايات المختلفة التي تناولها كتاب ورحالة ومؤرخي تاريخ مدينة عدن، فمن أسماء هذه الأبواب: باب الصناعة- باب حومه- باب السكة – باب الفرضة – باب مشرف- باب حيق [16].

ويتابع الرحالة المقدسي في وصفه لمدينة عدن بقوله : **ولهم آبار مالحة وحياض عدة ويقال إنها كانت في القديم حبس شداد بن عاد إلا إنها يابسة عابسة لا زرع ولا ضرع ولا شجر ولا ثمر ولا ماء ولا كلا كثيرة الحريق والوكف جامع شعث وهرج وحش وحمامات ردية يحمل إليهم الماء من مرحلة)** ويسترسل المقدسي في وصف مناخ مدينة عدن ويرمز إلى ذلك بوصف المدينة من كونها يابسة ،عابسة كناية عن قلة المياة ووجود مناخ حار أدى إلى غياب الزروع والثمار ومعنى (كثيرة الحريق يبيت الرجل غنيا فيصبح فقيرا) [17] ويمكن أن يعود ذلك لخسارة الرجل تجارته نتيجة للأمواج العاتية أو ما شابة ذلك من الاحداث. كما أن مدينة عدن تجمع كل الناس من جميع الاصناف وذلك ما قصده بقوله **(جامع شعث)** من كل حدب وصوب وكأنهم شعث الرؤوس كما يصف كلام هؤلاء القوم المتعددين والمختلفين بأنه **(وهرج**

وحش) الهرج هو الكلام الذي يتكلم به الناس فهو مختلف بحسب الاقوام الزائرين لهذه المدينة من الاحباش والفرس والهنود وما هنالك من الاقوام المختلفة في هذا البلد الذي تجمعهم المدينة في ارجائها لهم تجارتهم وأنشطتهم وسلوكياتهم المختلفة فلا عجب من أن يرى الرحالة المقدسي هذا التعدد والاختلاف في مدينة تحوي بروعتها كل هذا الاختلاف وتصهره في محيطها لتجعل منه لونا واحداً يجمعه حب المدينة والعيش فيها. ويواصل الرحالة المقدسي بقوله **(وحمامات ردية يحمل إليهم الماء من مرحلة)** يعرج المقدسي بهذه الاشارة للحمامات الموجودة في المدينة بأنها لم تجد العناية الجيدة بها فلذلك وصفها بأنها ردية ويمكن أن يعود ذلك لقله المياة ووصولها إليها فكما هو معروف إن مناخ مدينة عدن يمتاز بالحرارة الشديدة وعدم توفر المياة بها إذ يتم نقله من اماكن أخرى من مدينة أبين مثلاً أو من أماكن قريبة للمدينة. مما سبق يتضح مدى الوصف الرائع الذي اعطاه المقدسي لمدينة عدن، وصفا مزج فيه بين الناحية الايكولوجية والاجتماعية، راعى فيه النقل المباشر والملاحظة الثاقبة لما تحويه المدينة من الصفات والمميزات، وقد اوجز وصفه في عبارات مختصرة عميقة الدلالة والمعنى، اغنت عن عبارات كثيرة قد لا تكون بعمق المعنى ودلالته والذي وضعه المقدسي، وبهذا اعطانا وصفا اثنوجرافيا للمدينة يضاهي الدراسات الانثروبولوجية والاثنوجرافية الحديثة في وصفها وتحليلها للاماكن والثقافات التي تعمل على دراستها. فقد ارتكز في وصفه للمدينة على مختلف النواحي الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية وأعطى صورة عن أهمية عدن في تلك الفترة أي في عهد الدولة الزيادية مما يجعلنا نحيط بتاريخ عدن في تلك الفترة ومقدار ما وصلت إليه من رقي وتطور.

لقد حقق المقدسي طريقة وطبيعة الدراسة الاثنوجرافية من خلال جولاته في البلدان التي زارها ولقاء العلماء وخدمته للملوك ومجالسته للقضاء ودرسه على الفقهاء واختلافه للأدباء والقراء وكتبه الحديث ولزوم التجارة في كل بلد ومعاشرة مع كل أحد وهذه الدراسة الاثنوجرافية التي أشار إليها الانثروبولوجي البريطاني المعاصر "ايفانز برتشارد"الذي يرى ـ في القرن العشرين ـ إن الانثروبولوجي لن يصل إلى دراسة حقلية جادة لنموذج دراسته ما لم يتعلم لغته المحلية ليجعل من نفسه موضوعاً متصلاً بثقافة المجتمع موضوع الدراسة عن طريق الملاحظة العلمية لمختلف مناشطة اليومية ونظمه الاجتماعية [18] وهو ما حققه المقدسي في رحلاته ومنها رحلته الى مدينة عدن.

الخاتمة

1- لقد قدم العرب للبشرية مخزوناً لا ينضب معينه في كتبهم الجغرافية التي درسوا فيها احوال الشعوب ونحلها عن كثب من خلال الرحل والتجوال والإقامة بين ظهراني الشعوب التي دانت بالإسلام بالدرجة الأولى، والشعوب التي تقع على اطراف الدولة الإسلامية المترامية الأطراف. إن اتساع الدولة الإسلامية قد جعل من وصف الاقاليم والعناية بها جزءاً من ضرورات الحكم واستتاب الأمن ونشر العدالة والمساواة بين الناس وفقاً لما جاء من تعاليم دينية في القرآن الكريم(إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم)[19]

2- يعد الرحالة المقدسي من ضمن الرحالة الذين كتبوا عن مدينة عدن مستعرضا في وصفه لموقعها ودورها التجاري والحضاري معرجا على وصف أهلها ومساجدها ومساكنها والإشارة إلى سورها وأبوابها، هذا الوصف الذي قدمه الرحالة المقدسي للمدينة يعد بمثابة دراسة علمية قيمة عن مدينة عدن تضاهي بدلالتها العلمية والمعرفية الدراسات الاثنوجرافية الحديثة، والذي يمكننا من إن نتخذ هذه الدراسة مرجعا مهما للدراسات الانثروبولوجية والاثنوجرافية الحديثة.

3- يعود السبق للرحالة المسلمون في تأريخ وتدوين الدراسات الانثروبولوجية والاثنوجرافية قبل العلماء الاوروبيين والذين ينسبون اليهم الفضل في ذلك، فمن خلال الرحلات التي قام بها الرحالة المسلمون وكتاباتهم المختلفة عنها، نجد تراثاً انثروبولوجياً حافلاً بشتى الدراسات الوصفية التحليلية والمقارنة تضاهي الدراسات الانثروبولوجية الحديثة أن لم تتفوق عليها، وهذا يدفعنا للاستفادة من تراثنا الإسلامي في ترسيخ نهج جديد نتبعه في دراساتنا الانثروبولوجية والاثنوجرافية وأن لا نتقيد فقط بالدراسات الغربية ونهمل تراثنا الفكري والحضاري.

4- اقامة الندوات والورش للتعريف بالرحالة العرب والمسلمين وما خلدوه من تراث علمي والاستفادة منه في حاضرنا وللأجيال القادمة.

الهوامش

1. قصي الحسين ، موسوعة الحضارة العربية،العصر العثماني والمملوكي، دار البحار ودار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 2004م ، ص486

2. زكي محمد اسماعيل (1982م) الانثروبولوجيا والفكر الاسلامي، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع،المملكة العربية السعودية، 1982 ، ص32-33

3. مسعود عمشوش ، ادب الرحلات في حضرموت، 2018 ، ص4

4. السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية،1997، ص191

5. يحيى مرسي عيد بدر اصول علم الانسان الانثروبولوجيا الجزء الأول، مكتبة ومطبعة الاشعاع الفنية، الإسكندرية، 2000 ، ص28

6. هس شارلين بيبر و باتريشيا ليفي، البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية،المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011، ص 388-389

7. المقدسي شمس الدين ابي عبدالله محمد ،احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، مطبعة بريل، الطبعة الثانية، 1906، ص2

8. زكي محمد اسماعيل ، مرجع سابق، ص36

9. السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص192-193

10. زكي محمد اسماعيل ، مرجع سابق، ص36

11. المقدسي شمس الدين ، مرجع سابق، ص85

12. هيفاء عبد القادر مكاوي، اسوار مدينة عدن، الندوة العلمية عدن بوابة اليمن الحضارية، 18-19 يناير، اصدارات جامعة عدن ،2011، ص 163

13. ابي مخرمه ابي عبدالله الطيب عبدالله بن احمد (تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها، دار الجيل ودار عمان،بيروت، عمان،1987م، ص20-21-22

14. هيفاء عبد القادر مكاوي ، مرجع سابق، ص171

15. نفس المرجع، ص165-167

16. نفس المرجع، ص166

17. المقدسي شمس الدين ، مرجع سابق، ص 5

18. زكي محمد اسماعيل ، مرجع سابق، ص35

19. علي عبدالله الجباوي، الانثروبولوجيا علم الاناسه، مطبعة ابن حيان، دمشق،1988، ص31